المتعاظمون

هذا الفريق من بنى آدم أو هذا الصنف كثير شائع ، ولكنى أقصر الحديث هنا على بعض أصحاب السلطان منهم ؛ ولسوء حظك أو لسوء حظى أنا — على أقرب الرأيين إلى الصحة — أن يرى هؤلاء فى كثير من المجالس . ولست بحاجة إلى منظار ، بل ولا إلى عينين — لا قدر الله — لترى هؤلاء الناس ، أو تحس سلطانهم إن صح عندهم أنهم ناس من الناس ...

ومن عجيب أمر هؤلاء أنهم وإن كانوا على رغم أنوفهم الشم ناساً يجرى عليهم ما يجرى على سائر الخلق لا يؤمنون إلا بأنهم فوق مستوى الناس ، وعسير عليك أشد العسر أن تقنعهم من بعيد أو من قريب بأن لهم مثلك يدين ورجلين وحواس وما إليها من جوارح وأحشاء ، وأنهم يأكلون كما تأكل ، وإن لم يكن مما تأكل ، وأنهم يشربون وينامون ويفرحون ويغضبون ويمرضون ويموتون كما يجرى عليك من أحكام الطبيعة سواء بسواء

هذا الفريق الذى أتحدث عنهم هم أصحاب السلطان من أصحاب الديوان . ولعلك لم تنس بعد أحاديثى عن أصحاب الديوان ، وإن كنت وقفت بك عند صغارهم لا خوفاً من كبارهم علم الله . وما لى أقسم وها أنذا أعرضهم عليك جملة وأحشرهم أمام المنظار فى غير تهيب ولا رفق :

ترى الشخص منهم — وهو شخص رضى أو لم يرض — فى ردهة من ردهات دور الدو ، أو فى سيارة عامة ، إن لم تكن له سيارة خاصة ، أو فى عرض الطريق ، فتحييه تأدباً منك وعملاً بما يوجبه الذوق وتفرضه الإنسانية ، فيدهشك أنه يبدو عليه كأنه لا يلقى منك تحية ، بل تراه وكأنه يلقى منك إهانة ؛ وإلا فما باله وقد كان منبسط الأسارير : يتجهم لك ويشمخ بأنفه ويرميك بنظرة كريهة كأنه يريد أن يخيفك فى غير داع لذلك ولا مناسبة ؛ ثم يرد تحيتك الحارة برفع سبابته قليلاً تجاه رأسه العالى ، أو بإيماءة بسيطة ، ويمضى وكأنه لم يكن يرد تحية ، وإنما كان يرد على توسل سائل بإلقاء مليمين فى كفه المبسوطة ! ...

ولقد تعجب لذلك ، ولكن يحيك دليل بساطتك أو طيبة قلبك ... والحق أنى أريد أن أقول دليل « عبطك » فاقبلها منى ولا تدعنى أموه فأتحايل على الألفاظ ، ولخير لك على أى حال أن تكون كما أذكر ، وتكون لطيفاً ، من أن تكون فظاً غليظ القلب ، وإلا فلك الخيار ، ولكن على شرط أن يتوافى لك السلطان قبل كل شىء ...

وفيم تعجب وعنده أن التحية توجه إلى مقامه ممن هم دونه ، إنما هى ضرب من عدم الاحتشام بين يديه ، فهى لذلك ضرب من عدم اللياقة ، أو هى جرأة تلحق بقلة الأدب عند بعضهم ، وما أردت أنت إلا أن تكون مؤدباً ... ولقد يصور له كبرياؤه وغروره أن ذلك منك تحد لمكانته الخطيرة والعياذ بالله ، وفى ذلك سر تجهمه وتعاظمه وكريه نظراته وتفسيره تأديبك بأنه قلة أدب

وكأنى بك ، أيها القارئ ، تضحك منى وتقول فى نفسك إنما يصور بما يكتب ما وقع له ، وأريد أن أكون صادقاً ، فأسلم لك بصحة هذا ، ولكن قل لى بربك ، ما ذنبى لتضحك منى يا أخى — سامحك الله — وأينا أجدر بضحكاتك ، أنا أم ذلك المتعاظم المتكبر ؟ ثم اعلم أنى لم أغضب ولن أغضب لما يكون بينى وبين هؤلاء المتعاظمين . لم أغضب لأن ما حدث هو ما كنت أتوقعه ، بل إنى لأضحك إذا أقع من ذلك على مادة لمنظارى ، ثم إنى لن أغضب لأنى أعرف كيف أكيل لهم بنفسى كيلهم متى أردت ، فأزيدهم غيظاً وأزداد منهم ضحكا ، ولو علمت الحق لرأيت أنى دائماً ألقاهم بالعصيان المدنى ، وهو سلاحى السلبى الوحيد الذى لا سبيل لى إلى غيره

جمعنى بفريق من هؤلاء مجلس من المجالس ، أو قل قادتنى الظروف على رغمى إلى هذا المجلس ، فما كان لى أن أغشى مجالس أصحاب السلطان مختاراً ، فانتحيت ناحية وجلست ، وقادت الظروف كذلك بعض أصدقائى ممن هم فى مثل سنى ، وفى مثل مركزى الصغير ، فحمدت الله وزال عنى القلق ، فلقد كنت أحس نفسى غريباً قبل مجىء هؤلاء الذين لا حول لهم ولا سلطان ، وانفرجت شفتاى لأول مرة منذ جلست أرد على تحيات هؤلاء الأصدقاء ، فما وجه إلى أحد من أصحاب السلطان تحية تنفرج لها الشفاه ، ..

فلم تلك ثمة إلا إيماءات متكلفة لاذعة قصيرة، أو إشارات باليد آلية لا روح فيها ، اللهم خلا رجل منهم تلطف فجاد عليّ بتحية مناديا إياي باسمي ولكن بعد أن فعل ذلك من هم على شاكلتي من الخلان

وجلست صامتاً أترقب وأنا أخفي ضحكي مما رأيت على وجوه أصحاب السلطان من معاني الازدراء عند دخول أصحابي ، ولقد حياهم هؤلاء السذج في أصوات طلقة ، وفي إشارات وانحناءات دمثة جميلة ، فما عادوا إلا بأشارات وإيماءات أرستقراطية كانت هي الأخرى جميلة على رغمي وعلى رغم منظاري !

واستأنف أحد أصحاب السلطان ما كانوا فيه من حديث ، واحتدم النقاش بين هؤلاء السادة، فهذا يعترض على ذاك ، وذلك يرى ما يرى جاره أو لا يرى الصواب في رأيه ، وفي وجوه الجميع بشر أو تحمس أو ضحك من دعابة أو نكتة يطرد من هاتيك الوجوه شبح الكهولة أو يستهل الشيخوخة لحظات

وبدا لأحد السذج من الرفاق ـ رفاقي أنا ـ فحشر نفسه في الحديث يحسب أنه يكلمني أو يكلم أحد أقرانه ، فما أسرع ما بدت الدهشة على وجوه الجميع ! ثم تغافلوا عنه بأطراقهم ، وقطع عليه أحدهم كلامه فساق الحديث إلى رأي جديد ، وذهبت كلمات المسكين هباء أو أقل من الهباء

ثم تكلم شاب آخر لم يتنبه بما جرى لسالفه فكان من أحب المناظر عندي ، ولا أقول من أبغضها أن أرى على وجوه أولئك السادة ذلك الاتفاق الذي لم يقصدوا إليه لأنهم اعتادوه كلما تطفل على حديثهم العالي متطفل لم تصل بعد مداركه إليه ولا هيأه مركزه حتى لمجرد الاستماع له ، وهو اتفاق على المقاطعة أو الإغفال لأمر المتكلم . وأحسب أنهم لو نظروا ساعتئذ إلى ذلك الساذج الثاني لأخفتهم الشفقة لجرة الخجل تتوقد في محياه فما تقسو قلوبهم إلى حد أن يعرضوا عنه وهو على تلك الحال

على أن اثنين منهما رمياه بنظرة ولكن بعد أن خفت في وجهه جرة الخجل ورأيتهما يزدريانه في صمت، فهو مرؤوسهما في الديوان ولا يجمل به أن يجرؤ مثل هذه الجرأة فيناقش رؤساءه . وكم أتمنى لو يتاح لي من البيان ما أصور به ما ارتسم على محياهما الكريهين من اشمئزاز ! وكم يؤلمني ألا تسعفني الألفاظ بما أريد !

وأني أحدهم بنكتة تصلح لأن تكون نكتة ولكنه أتى بها لسوء حظه في ضجيج من النقاش فلم يفطن إليها غيري فضحكت بصوت يسمع فالتفت نحوي ضاحكا مسروراً وصاحب النكتة يبحث داعماً عن الضاحكين من نكتته ويسر إذ يجدهم . . . على أن هذا ما لبث أن قطع ضحكته بغتة كأنما أزعجه أن يتبادل وإياي الضحكات ثم تكلف العبوس ونظر إليّ ولكني لم أقطع ضحكتي فقد كانت هذه الحركة منه أدخل في معنى النكتة من عبارته وأدعى إلى الضحك منها

وما يريد أصحاب السلطان ممن هم أصغر منهم إلا أن يتزلفوا إليهم فينهضوا وقوفاً إذا أقبل أحدهم ويشيعوه إذا انصرف ، فإذا تقدم أحد هؤلاء الصغار ففتح باب السيارة حتى يركب « سعادة البك » أو حمل له معطفه حتى يلبسه فذلك هو ما يكبر به في عين سعادته ولذلك دخل كبير في قياس كفايته في عمله وإن لم يكن لعمله صلة ما بعمل « الجرسونات » ! والعجيب أنك ترى الرجل من هؤلاء يتصاغر ويتكمش كأنما يدخل بعضه في بعض إذا كان أمام من هم أكبر منه وذلك بقدر ما يتعاظم وينتفخ إذا نظر إلى من هم دونه

وبعد فقد أفهم أن أرى أصحاب السلطان في دواوينهم متعاظمين وإن عد ذلك مرذولاً منهم أينما كانوا ، فإن الرجل منهم يكون هناك في « منطقة نفوذه » وما يذهب إليه في الغالب حيث مقر سلطانه إلا طالب حاجة عنده

ولكن كيف أفهم لعمري أن يتعاظم عليك هؤلاء خارج دواوينهم ولقد تكون بحيث لا تربطك بهم صلة من عمل أو من حاجة ؟ بل كيف يتعاظمون وإن كان يصلك بهم العمل أكبر صلة وإن منهم من لا يفضلك إلا بما ساقته إليه الظروف من منصب بحيث لو رجع القهقرى إلى مثل سنك لكنت أحسن منه عقلاً وأقوى تفكيراً وأكثر اطلاعاً . ولقد تكون اليوم أكثر منه ذكاء على رغم جاهه ، بل ولقد يكون من الغباء بحيث لا يصح أن تقيس عقلك إلى عقله إلا إذا أردت أن تمتهن نفسك

وبعد فنحن أمة تكثر الكلام في الديموقراطية وتبالغ في السخرية أحياناً من حيث لا تدري فتطيل الكلام عن الانتخابات مثلاً أتكون مباشرة أم غير مباشرة ؟

الطفيف